http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1692) السنة السابعة - الخميس (7) كانون الثاني 2010

تحقيق وتصوير / وائل نعمة - إيناس طارق

بين فتحات الجدران الكونكريتية وفوضى السيارات والعربات التي يدفعها الأشخاص وتجرها الحيوانات تجد طريقك داخل احد الأزقة الضيقة بعد ان جزعت من أصوات الضجيج وقد لا تسر مما سترى لان حالها كحال الكثير من الأزقة القديمة الواقعة بالقرب من منطقة الشورجة،فنحن نتحدث عن منطقة (قنبر علي)، واحدة من أقدم المناطق في بغداد والتي يعود تاريخ إنشائها الى أكثر من قرن مضى، كانت تحمل في طياتها الكثير من الأحداث التي شهدتها هذه المنطقة من انطلاق الحركة الأدبية والثقافية بين أبنائها التي كانت تشغلهم حركة الثقافة في بغداد والعراق، كما رفقتها قصاصات الورق التي كانت تدس في الجيوب وتندد بالوجود البريطاني والى حلم الجمهورية.

ويعود تاريخ منطقة قنبر علي التي أطلقت عليها هذه التسمية نسبة إلى مرقد صحابي يحمل الاسم ذاته إلى العهد العثماني، وتقع بين حي الفضل امتدادا حتى الروضة الكيلانية (مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني) في وسط بغداد. لكن عوامل الزمن تراكمت على أبنيتها حتى أصبحت واحدة من افقر مناطق بغداد وأكثرها بؤسا في الوقت الذي تتداعى شناشيلها للسقط دون ان تجد من يسعفها ممن يهمهم تأريخ بغداد وعمارته المتميزة، ومن أزقتها المعروفة زقاق الباشا وشارع سلطان حمودة وشوارع أخرى كثيرة تقع بين الكفاح وشارع الجمهورية.

منطقة «قنبر علي» تبحث عن منقذ لبيوتها وشناشيلها

تلال من النفايات والأهالي يبتكرون حلا لمشكلة المجاري!

لم تعد كما السابق

قنبر علي لم تعد كما كانت في السابق وبدأت ملامحها تتغير ان لم نقل بأنها قد تغيرت بالفعل، وحتى تركيبتها السكانية والطبقات الاجتماعية قد تحولت الى شكل آخر كما يصفها عادل صاحب احد المحلات التجارية في المنطقة «الذي يقول: منذ الثمانينيات تغيرت المنطقة من حيث العوائل الأصلية التي كانت تسكنها، فغادرها الكثير وحلت محلهم عوائل أخرى، ولم يبق من العوائل القديمة سوى عدد قليل لا يتجاوز الخمس عوائل».

واستذكر حميد راضي من مواليد ١٩٥٠ من منطقة قنبر علي طريقة العيش والتعامل بين الأسر في المنطقة في أيام زمان ويقول « ان التعامل كان مختلفا في الأيام السابقة بين أهالي المنطقة بحيث تشعر أن المنطقة أسرة واحدة وكانت الأسر حينما تريد السفر الى محافظة أخرى تترك أطفالها عند الجيران وبكل ممنونية ورحابة يستقبل الجيران الأطفال ويتعاملون معهم كأنهم من أفراد الأسرة».

كما وأشار الأهالي الى ان بعد أحداث ٢٠٠٣ جاء الى المنطقة أشخاص لا يعرفونهم وسكنوا فيها وبسبب عدم وجود حالة من التجانس بين الأهالي الموجودين الآن لم يتدخل احد ولم يسأل عن الساكنين الجدد فيما كان بالماضي لا يمكن ان يسكن احد لا يكون معروفا لأبناء (الطرف).

منطقة قنبر علي أصبحت منطقة تجارية أكثر مما هي منطقة سكنية، ويعود تغيير شكل المنطقة الى أسباب عديدة، يسوق لنا أبو علي ٥٠ سنة احد ساكني هذه المنطقة الأسباب التي كانت وراء تحول المنطقة من سكنية الى تجارية «ان قرب المنطقة من سوق الشورجة قد أثر على خيارات العمل لساكني هذه المنطقة ما دفع الكثير منهم الى فتح محلات من داخل البيوت تواكب عمل الشورجة، هذا إضافة الى تحول الكثير من البيوت الى مخازن لحفظ بضائع محال الشورجة».

وكان من احد أسباب تحول هذه البيوت الى مخازن يعود الى الفقر المدقع الذي أصاب أهالي هذه المنطقة وإهمال المنطقة من حيث الخدمات ما دفع ساكنيها الى بيع او تأجير منازلهم القديمة والانتقال الى مناطق أخرى أفضل تهوية وخدمات.

التمسك بالمنطقة

بالمقابل يرفض البعض من أهالي المنطقة مغادرتها رغم الزحف الصناعي والتجاري الذي احتلها، فمنهم من كان مرغما على البقاء لانه لا يملك غير بعض (الطابوق) الذي يتآلف بطريقة سحرية مكونا منزلا قد لا يحتمل ريحا قوية بعد ان أنهكته السنين واكلته الرطوبة، فأصحاب هؤلاء البيوت من الناس البسطاء الذين لا يستطيعون الخروج لعدم قدرتهم على شراء منزل آخر او استئجار بيت آخر، وهناك قسم آخر من ساكني المنطقة لديهم ارتباط روحي ونفسي واجتماعي بالمنطقة ولا يستطيعون العيش خارجها، فهم كالسمك الذي يموت حينما يخرج من الماء.

تجارة متقلبة

الانقلاب الذي حدث في هذه المنطقة لم يكن وليد اللحظة لكنه حالة من التدرج ابتدأت مع انتعاش منطقة الشورجة ولجوء الكثير من ساكني المنطقة الى بيع التبغ.ولسنوات طويلة ظلت هذه المهنة ملازمة لسكان المنطقة خصوصا في فترة التسعينيات.

وبعد ان انتهت فترة هذه التجارة بسبب دخول السكائر المستوردة تحول العمل الى تجارة أخرى، أبو سعدون احد أصحاب ورش النجارة التي تنتشر بشكل لافت للنظر يقول ان المنطقة قد تحولت من بعد تجارة التبغ الى تجارة الأخشاب واستقطبت النجارين حتى من مناطق أخرى ولانهم يرغبون بفتح الورش في هذه المنطقة لقربها من تجار المحافظات الذين يلجأون الى الشورجة لشراء ما يحتاجون الى تجارتهم ما دعا الى ان يكون المكان تجمعا لتجار مختلفين لأعمال متنوعة. كما ان هذه الورش لم تستطع ان تقاوم كثيرا لان الأثاث الماليزي الجديد قد غزا سوق الأثاث الخشبي ونافس حرفيي هذه المنطقة، وانقسمت الى حرفيي خشب وبائعي الأثاث المستورد.

ذكريات الماضي وعمود العشاق

وبالرغم من التغييرات التي حصلت في المنطقة الا ان هناك بعض المشاهد التي تذكرك بتلك الايام الجميلة، فالرجال الكبار في السن الذين مازالوا يحرصون على الجلوس في المقاهي القديمة مثل مقهى أبو عدنان او كما كانت تسمى مقهى (محمد علي) ومقهى اشبيلية، يتذكر المجتمعون في هذه المقاهي وهم يشربون الشاي ويضربون بأيدهم على الطاولات الخشبية بأحجار (الدومينو) أيام الشقاوات والمعارك التي خاضها سكنة المنطقة ضد البريطانيين والأتراك، ويتذكرون حفلات صراعات (الديوك)، التي كانت تجرى كل يوم جمعة.

وذكر لنا أبو حمزة ٦٠ سنة بان الكثير من الشخصيات كانت تجلس في هذه المقاهي منها الشخصيات السياسية والثقافية، ويتذكر مما كان يقال على جلوس الضباط البريطانيين الكبار ومسؤولي منطقة قنبر علي في ذلك الوقت في هذه المقاهي.

وحينما تسير متجها الى سوق حنون سيلفت انتباهك عمود كهرباء قد مال على احد البيوت بشكل غريب وميلانه ليس اثر حادث وانما كشجرة فقدت ثمرها ومحبيها ومن كانوا يعتنون بها، ويقول أهالي المنطقة ان هذا العمود ربما يكون خطراً لانه قد يسقط على احد المارة او يهدم جزءاً من البيت الذي استند إليه، الا ان هذا العمود له ذكريات عند بعض ساكني المنطقة القدامى فيسمى هذا العمود عمود (العشاق)! فلكل رجل تعدى الستين من عمره في هذه المنطقة ذكرى بالقرب من هذا العمود الذي يقع في احد أركان الأزقة حيث كان ينتظر الحبيب حبيبته تمر بعباءتها ويتغزل بشعرها الذي يظهر خجولا من تحت سواد العباءة مرددا اغنية قديمة «ياكذلة المحبوب من الشمس تفيني».

وانت تتعدى عمود العشاق ستصل الى احد أقدم الأسواق في المنطقة و يسمى سوق حنون، اليوم حاله ليس كما كان في السابق، فيه محلات عشوائية تبيع المواد الغذائية والمخللات وبعض المطاعم الشعبية.

وقد اكتسب هذا السوق اسمه نسبة الى احد ابناء منطقة قنبر علي وكان من تجار المنطقة، وهو من الأوائل الذين مهدوا لنشوء السوق اذ كان يبيع البيض والدجاج ثم التف من حوله بقية الباعة وأصبحت المنطقة تعج بالحركة وانتبه اليها التجار اليهود وطوروها الى سوق كبير في العقود الماضية استمر لأكثر من أربعين عاما.

يقول رزاق حامد ٤٠ سنة احد سكان منطقة قنبر علي، ان والده كان يحدثه عن هذا السوق، الذي قضى صباه وشبابه فيه، وكان كل يوم يسلك شارع السوق الرئيس في ذهابه وإيابه الى المدرسة. ويذكر رزاق من كلام والده حول سوق حنون بأنه كان يباع فيه الأسماك الكبيرة والصغيرة ومن مناشئ متعددة تبدو أشكالها غريبة بالنسبة لهم في ذلك الوقت اذ لم يعتادوا عليها او يشاهدوها في مكان ما، كذلك كانت تباع أنواع الدجاج والبط والطيور الأخرى، اذ كان التجار اليهود يأتون بها بواسطة البواخر من الدول الآسيوية والإفريقية، وكان العديد من الشخصيات السياسية والثقافية والفنية يأتون الى السوق يتبضعون في أيام العطل والأعياد لجودة ما فيه من لحوم واسماك وبيض البط والدجاج التي كان يتاجر بها (حنون) في بداية تأسيس السوق.

رئيس المجلس البلدي: لا أحد يسمع شكاوانا وقد شبعنا من التبريرات والوعود!

شناشيل ابنة الجلبي

وربما تكون من أكثر الأشياء التي تثير فيك روح الفضول والشغف في هذه المنطقة منذ لحظة دخولك اليها هو حب مشاهدة البيوت القديمة التي تزين واجهاتها بالشناشيل. وهي من الطراز العباسي والأقواس التي تزين مداخل البيت تعود الى تلك الفترة العباسية فلا توجد اي لمسة أجنبية في بيوت الشناشيل، و كانت مواد البناء الشائع استخدامها في بناء البيوت هي إما الطابوق الطيني أو الحجر مع الجص، وكان الهيكل الإنشائي يعتمد على الجدران الساندة وتبنى السقوف بطريقة (العقادة) فكان يمد الحديد أو الخشب أو الحجر الذي يرتكز عليه السقف إلى الشارع أو الفناء ثم يكمل البناء فوقه بالخشب المزخرف ويسقف أيضا بالخشب لخفة وزنه حيث أن البروز لم يكن يستند الى أعمدة فلا يتحمل الطابوق أو الحجر.

كانت هناك أنواع متعددة من الشناشيل بعضها مغلق والبعض الآخر مفتوح حيث أن المفتوحة كانت بمثابة شرفة تطل على الشارع أو الفناء وكانت النقوش الخشبية تترك مفتوحة تسمح بدخول الهواء والضوء، أما المغلقة فقد كانت امتدادا للغرف بالطابق الأول وكانت الزخارف تبطن بالزجاج الملون وتجعل فيها نوافذ تفتح عموديا.

فشناشيل منطقة قنبر علي وغيرها من مناطق بغداد القديمة مهددة بالتلف وبالضياع و بالتشوه والفناء و كيف تصمد بزهو و بهاء دون ان يكون اثر لید تمتد لتحيي هذه العمارة الجميلة والتي تعد من ابرز ملامح بغداد فهل سيتذكرها احد ويحذو حذو السياب حين وصف الشناشيل قائلاً:

شناشيل ابنة الجلبي نور حوله الزهر

عقود ندى من اللبلاب تسطع منه بيضاء

وآسية الجميلة كحل الأحداق منها الوجد والسهر..

احد ساكني هذه الشناشيل ومن المهتمين بها ودائم الترميم بها يصف لنا هذه الشناشيل فيقول حمودي أبو شامه « انها من أجمل ما يميز مناطق بغداد القديمة ويعبر عن هويتها وعن هوية ساكنيها، ومعظم الخشب الذي تصنع منها الشناشيل هو من خشب الجام والصاج ويصبغ بألوان زاهية تعطي رونقا جميلا للبيت، وعمليات التخريم والزخرفة التي في الخشب هي بالأيادي وليست بالمكائن، وإهمالها وعدم تشكيل لجان لإحيائها يعد جريمة بحق التراث البغدادي . بالرغم من ان الأمانة ترفض ازالة هذه الشناشيل بعد ان اراد بعض الساكنين في هذه المنطقة هدم بعض البيوت (الشناشيلية) لينشئ مكانها بناية جديدة، الا انها في الوقت نفسه لم تقدم أي شيء للاهتمام بها، كما ان وزارة الثقافة لم تقدم على الحفاظ على روحية المكان على حد تعبير ساكني المنطقة.

وبالرغم من الحالة الخربة التي عليها هذه الشناشيل والبعض منها استندت الى الأخرى في حالة تدل على الالتصاق والتوائم والقربى بين الجيران، الا انها لاتزال تنبعث منها رائحة عبق الماضي الجميل حيث النساء يتحدثن من الشبابيك وسطوح المنازل ويتبادلن الأكلات بعد ان تكون روائح الأطعمة قد دخلت بيت الجيران دون استئذان.

بعض الساكنين الآن في هذه الشناشيل او ما تبقى منها قد اختلفوا في عائدية هذه المنازل فبعضهم من ذكر بأن هذه البيوت تعود الى الطائفة اليهودية والبعض الآخر يقول بأنها تعود الى أمانة بغداد وآخرون يقولون بأنها تعود الى وزارة المالية وبعض الساكنين يدفعون بدل إيجار الى أمانة بغداد، والبعض الآخر لا يدفع لان البيت الذي يسكنه يعود الى الطائفة اليهودية وبعد ٢٠٠٣ لم يعد هناك ممثل شرعي يقوم بجمع بدلات الإيجار الى الطائفة كما كان سابقا، فيما قال آخرون أن الممثل للطائفة اليهودية مازال موجودا! ومن يريد ان يعيش بشكل شرعي ولايريد ان يدخل في جيبه دينار حرام سوف يدفع الإيجار حتى لو تجمع لمدة عشرين سنة!

ما وراء الشناشيل

مظاهر الشناشيل وروح المكان الذي يذكرك بالزمن الماضي الجميل حيث المودة والألفة ينغصه مشاكل العصر، فمجرد ان تمد ببصرك الى الأرض ستجد النفايات وقد غطت أركان الازقة وترامت على سطوح البيوت القديمة وبعضها أصبح تلالا اثرية استندت إليها البيوت وأزالتها تعد خطرا فلربما يسقط البيت الذي وجد للنفايات متكأ له!، يقول أبناء المنطقة أن الخدمات البلدية سيئة جدا وعمال النظافة لا يدخلون المنطقة الا في الأسبوع او الأسبوعين أحياناً ولمرة واحدة، هذا إضافة الى سوء شبكة تصريف المياه الثقيلة والاستعاضة عنها بسواق خارجية تفوح منها روائح كريهة لا تليق بمنطقة في وسط بغداد العاصمة.

انعدام الخدمات

والقصة تطول وتزداد استغرابا حينما تأخذك قدماك نادمة على ما ستراه، حينما تصل الى زقاق (٢٠) او ما يسمى بمنطقة التوراة، فهذه المنطقة كان معظم ساكنيها من اليهود وفيها بعض الآثار التي لا تزال شاخصة ولكنها تحولت الى أشياء أخرى، وبعضها أصبحت خرابة وأخريات هدمن، فهذه المنطقة توجد فيها بيوت وضعت فوق ابوب المنازل إشارات متشابهة يقول عنها أصحاب المنطقة بأنها بيوت لليهود. وقد كتب على البعض منها تاريخ ١٩٣٠ حيث يدل على وقت إنشاء البيت ، ومرورا بهذه البيوت تصل الى ساحة فارغة تصل مساحتها الى ١٥٠٠ متر مربع، يذكر سليم ابو مازن احد ساكني هذه المنطقة بأن هذه الساحة كانت تحوي معبدا لليهود ولكنه اندثر مع مرور الزمن وتحولت هذه الساحة الى مكب للنفايات ورفعت منذ وقت قريب.

وأمام هذه الساحة تقع بناية كبيرة هي الان مجموعة من المعامل والورش ويقول ابو مازن بأنها كانت مدرسة خاصة باليهود ولكنها تحولت الى منطقة صناعية.

ومن المستغرب في هذا الزقاق البائس بأنه يطوف على بحيرة من المياه الجوفية ولن يطول بك الامر حتى تكتشف ذلك، فسرعان ما تسبق نظرك الروائح الكريهة التي تنبعث من حفر قد صنعها أهالي المنطقة لتجميع المياه لان المنطقة قد أغلقت مجاري التصريف فيها منذ سنين ولم تعد هناك وسيلة غير حفر آبار لتجميع المياه الثقيلة، وهذه الآبار خطرة لان البعض منها مكشوفة ويصل عمقها الى أكثر من ثلاثة أمتار ويتجمع حولها الأطفال ولو سقط فيها احدهم فأنه لن يخرج منها مرة أخرى الا ميتا، هذه الآبار قد توالدت وبدأت تكثر يوما بعد يوم لأنها بدأت تمتلئ ويضطر السكان الى فتح بئر آخر وآخر.. وهلم جرا.

ويبدى أبو اشرف قلقا على صحة أفراد عائلته وأطفاله الثمانية حيث ان وجود هذه الآبار يهدد حياتهم ويجلب الإمراض والحشرات وقوارض تأكل الأخضر واليابس، وأبو اشرف يزور الأطباء والمستشفيات كل أسبوع لان أطفاله دائما ما يعانون من الأمراض ويعزو هذه الأمراض الى سوء الحالة في هذه المنطقة وتجمع النفايات.

مشاكل جديدة

ان سوء الخدمات وانسداد المجاري واللجوء الى الآبار جرت معها مشاكل اخرى لم تكن بالحسبان، فالجيران لهم كل يوم مشكلة مع بعضهم وحروب تارة بالألفاظ وتارة أخرى بلكمات والسبب تصريف المياه، حيث يذكر أبو إشراق ٤٥ سنة بأنه قبل يومين حدث شجار كبير بين الجيران كان يمكن ان يفضي الى قتل احدهم بعد ان تشاجروا بسبب رمي احد الجيران على الآخر او في بئر الأخرى اذا صح التعبير مياه منزله ما دعا من الآخر الاعتراض لان بئره لا تتحمل الضيوف!

قد لا يعرف الساكن خارج هذه المنطقة ما يحدث داخلها والذاهب الى سوق الشورجة للتبضع لا يتوقع ان تكون هذه المنطقة تعاني من مشاكل خاصة قد لا تكون موجودة في اماكن اخرى وربما سيأتي اليوم الذي تسقط فيه هذه البيوت بعد ان تتخسف بها الأرض بسبب المياه الجوفية.مسؤول المجلس البلدي بالمنطقة (فاروق محمد) ذكر بأن المنطقة تتكون من ٦٥ زقاقا وهذا كبير نسبيا ويحتاج الى منظفين كثر حتى يغطون المنطقة وليس لدى المجلس غير ثلاثة منظفين من ذوي الاحتياجات الخاصة الذين لا يفهمون ما يحتاجه الناس، ولا يستطيع ان يعمل في هذه المهنة غير هؤلاء لان الإنسان الطبيعي لا يمكن ان يعمل بهكذا وضع وبأجرة ٨ آلاف يوميا فيضطر المجلس الى تشغيل ذوي الاحتياجات الخاصة في مثل هكذا اعمال.

ويتحدث مسؤول المجلس عن الوضع الخاص لهذه المنطقة التي يقول عنها بأنها منطقة صناعية تجارية سكنية وشبكات المجاري وكل الخدمات التي فيها قد أنشئت في وقت كانت المنطقة فيها عشرات من العوائل بينما اليوم فيها اكثر من ١٤٠٠ عائلة وكل عائلة لديها خمسة أطفال في اقل تقدير هذا إضافة الى المحلات والورش التي استحدثت في المنطقة.

وعن زقاق (٢٠) او ما أطلقنا عليه بزقاق الآبار، أوضح مسؤول المجلس البلدي بأن هذه المنطقة كانت تغط تحت تل هائل من النفايات الذي وصل ارتفاعه الى ٦ أمتار، وبالقريب أقمنا حملة لرفع هذه النفايات رغم اعتراض البعض لان بيوتهم قد استندت الى هذه النفايات وان رفعها قد يؤدي الى سقوط البيت! اما عن حالة المجاري فأننا لا نجد آذانا صاغية من المسؤولين في المحافظة او الأمانة لرفع معاناة ساكني هذه المنطقة فمرة يتحججون بعدم وجود صوندات لسحب المياه ومرة بأن الشوارع التي تؤدي الى هذه الزقاق مغلقة، كما وطالبنا بإعطائنا (صاروخية) لفتح المجاري ولكن الأسباب نفسها دائما موجودة وبين كل هذه الأسباب بقيت المنطقة على حالها.

كما وتعاني المنطقة من عدم وجود اي مولدة حكومية قد ترحم المواطن من جور أصحاب المولدات الأهلية الذين يأخذون مقابل (الامبير) الواحد ١٠و ١٥ الف دينار ومعظم ساكني المنطقة من الفقراء، وعن هذا الموضوع ذكر مسؤولو المجلس البلدي بأن المحافظة رفضت إعطاءهم المولدات ورغم خروج الأهالي بمظاهرة الى المحافظة مطالبين بإعطائهم مولدات الى انها لم تجد نفعا والسبب في عدم شمولهم بالمولدات الحكومية يعود الى

أسباب مجهولة!

قد يكفي ما ذكرناه رغم ان الكثير قد يكون مخبأ في صدور الناس وفي أحلام الأطفال الأبرياء فهل ستكون هناك التفاته ممن لا يستطيع ان يضع رأسه على الوسادة وينام هانئا واعرق مناطق بغداد وأقدمها مهددة بالزوال ومستقبل أطفالها تحت رحمة البعوض والقوارض وآبار المياه الأسنة.